

الفصل السابع

علاقة مصطفى كامل بالخدّيو في ظل سياسة الوفاق

- ١ — موقف مصطفى كامل من سياسة الوفاق
- ٢ — تقييم علاقة كل من مصطفى كامل وعلى يوسف بالخدّيو
- ٣ — تحليل سياسة مصطفى كامل ودوره في الحركة الوطنية
- ٤ — وفاة مصطفى كامل

٦ - موقف مصطفى كامل من سياسة الوفاق :

اعتبر مصطفى كامل استقالة اللورد كرومر نصرا كبيرا للحركة الوطنية غير أن تعيين جورست واتباعه لسياسة الوفاق قد أقلقته وجعله يشعر بأن ذلك سيؤدي إلى بذور الشقاق بين الوطنيين والخديو، وقد عبر مصطفى كامل عن ذلك في رسالة له إلى جوليت آدم فقال « كان سقوط كرومر أمرا مرضيا لنا ، وإذا وهبني الله القوة لأستمر في جهادى خمس سنين فقط لوصلنا لا محالة إلى نتائج عظيمة^(١) » ثم ذكر أن اختيار جورست قنصلا جنرالا لانتجلترا في مصر من شأنه أن يبليل أمد الجهاد لأن خطته ستقوم على الملاينة والولاء للخديو برد بعض سلطته إليه أملا في تخدير الحركة الوطنية ، أو بذور الشقاق بين الوطنيين وحاكمهم الشرعى ، كما أوضح « أن السياسة الانجليزية ما زالت تعتقد أننا طوع ارادة الحاكم ، وأنه ليست لنا ارادة ذاتية منبثقة عن شعورنا » وطالب بأن نكون « السياسة الوطنية الصحيحة التى يمكن اتباعها في مثل هذا الموقف هي بلا ريب ترقب السياسة الانجليزية بكل حذر مع الاعتماد عن التعرض للخديو اذا هو اتفق مع جورست »^(٢) .

ونتيجة لسياسة الملاينة التى اتبعها جورست صرح الخديو بأنه مستعد للتعاون مع المعتمد البريطانى ، كما ذكر أن الاحتلال البريطانى أفضل من أى احتلال آخر وأنه لا فائدة من استبدال احتلال باحتلال ، ومعنى ذلك أن الخديو أوضح رغبته في مشاركة المعتمد البريطانى في

(١) على نهجى كابل : رسائل مصرية فرنسية ص ٢٨٥ .

(٢) جوليت آدم : المرجع السابق ص ٢٦٦ - ٢٦٧ .

حكم مصر حكما مطلقا^(٣) لذلك فإن مصطفى كامل لم يحجم عن انتقاد هذا الحديث فكتب في اللواء « أن تصريحات الجناح العالى لا تقيدنا بأى حال من الأحوال .. وأن كل مصرى صادق الوطنية لا يقبل أن يكون حكم مصر بيد سمو الخديو بمفرده ، أو بيد المعتمد البريطانى ، أو بيد الاثنين معا ، بل يطلب أن يكون حكم هذا الوطن العزيز بيد النابغين والصادقين من أبنائه ، وأن تكون نظمات الحكومة دستورية نيابية^(٤) » ثم أوضح استقلال الحركة الوطنية عن الخديو فقال « أن سمو الخديو بعيد عن الحركة الوطنية ، وأن المجاهدين ضد الاحتلال مستقلون عن سموه كل الاستقلال ، فهو ان قال كلمة فى صالح الحركة الوطنية خدم نفسه وعرشه واستمال أمته اليه ، وان عمل ضدها أضر بنفسه وعرشه ونفرت أمته منه ولكنه فى الحالتين لا يستطيع الاضرار بهذه النهضة ، لأنها نهضة المطالبين بالحياة والوجود ، ومثل هذه النهضة لا يضرها انسان مهما كان قويا وعظيما^(٥) » .

ثم ذكر « أن مصلحة الشعب المصرى تقضى بأن تكون الحركة الوطنية بعيدة عن الجناح العالى حتى يعلم العالم كله أن المصريين يطلبون بأنفسهم وطوعا لمواطنهم وشعورهم اصلاح حالة بلادهم ، وترقية شؤونهم ومنحهم الدستور ، وان هذه المطالب ليست صادرة بايعاز من كبير أو أمير^(٦) » .

وعلى كل حال فبالرغم من أن الحزب الوطنى قد حرم نتيجة لسياسة الوفاق من نصير قوى هو الخديو فإن ذلك لم يفت فى عضد زعامته^(٧) ، لأنه كلما أمعن عباس الثانى فى اقراره بالتدخل الأجنبى

(٣) الرافعى : مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية ص ٣٥٠ .

(٤) اللواء فى ٢٦ مايو ١٩٠٧ .

(٥) اللواء فى ٢٧ مايو ١٩٠٧ .

(٦) الرافعى : المرجع السابق ص ٣٥٠ .

(٧) د. يونان ليبب : المرجع السابق ص ١٩٨ .

وتسليمه للانجليز التفت الشعب حول الحزب ووقفوا بجانبه مما جعل الحزب يزداد اقتناعا بالاعتماد على شعبية الجماهير بدلا من الاعتماد على الخديو أو فرنسا أو الدولة العثمانية .

ونتيجة للسياسة التي اتبعها جورست في التربص بالحزب الوطني أخذ الحزب في تنويع أسلوب عمله السياسي لكشف أساليب جورست الملتوية وتوعية الجماهير^(٨) ، فكتب سيد علي أحمد أحد كتاب الحزب مقالا في اللواء أوضح فيه محاولات جورست شطر الأمة الى قسمين يفصل الراعى عن الرعية ليتخذ من أحدها ظهيرا على الآخر^(٩) .

وظل الحزب الوطنى ينبه الأذهان الى خطورة سياسة جورست كما ظل ينادى بوحدة الصف لمواجهة مخاطر السياسة الجديدة .

تقييم علاقة كل من مصطفى كامل والشيخ على يوسف بالخديو :

حرص مصطفى كامل على ضرورة اتباع سياسة ودية تجاه الخديوية وتقوية الروابط بينه وبين الخديو للاستفادة منه فى شد أزى الحركة الوطنية ، وبالرغم من تسليم الخديو فى حادثة فاشودة ومواقفته على اتفاقية السودان فإن الوطنيين قد التمسوا له العذر بعض الشيء ، وليس معنى ذلك أن الحركة الوطنية كانت ربيبة القصر بل أن مصطفى كامل كان يرى ضرورة المحافظة على العلاقات الودية بين الطرفين حتى لا ينفذ الاستعمار من خلال الفرقة لتأكيد نفوذه بشرط ألا يؤثر ذلك على المطلب الأساسى وهو الجلاء ، ولكن لما توالى خضوع الخديو للاحتلال جعل علاقة مصطفى كامل به تفتت كما جعلته يفكر فى الاستقلال بالحركة الوطنية عن الخديو وعدم الاعتماد عليه لأن فى ذلك تعظيما

(٨) يونان ليبى : المرجع السابق ص ١٩٩ .

(٩) اللواء : العدد ٢٧٦٩ فى ٢/١٠/١٩٠٨ تحت عنوان « السياسة الخفية والمعتمد المستتر » .

لشأن الحركة الوطنية وبوجه خاص في نظر دول أوروبا التي كانت تعتقد أن الحركة الوطنية في مصر ليست الا صنعة للخديو ومن غير وحي الشعب بل من وحي ولي الأمر^(١٠) فبادر مصطفى كامل بكتابة خطاب الى الخديو بعد مقابلته في ديفون يعلن عن قطع صلته به . ومن هنا تتضح طبيعة العلاقة المستقلة بين الخديو ومصطفى كامل لذلك فالقول بأن مصطفى كامل كان عميلا للخديو أمر يخالف الواقع لدرجة أن الخدير عباس الثاني اعترف بذلك في مذكراته فقال « لقد قيل في أيام كفاح مصطفى كامل العنيفة أنني كنت خصمه ، وقيل أيضا أنه صنيعتي ، وليس هناك ما هو أشد بعدا عن الحقيقة من هذا الذي قيل . ان مصطفى كامل لا ينتمي الا الى نفسه ، لقد كان رجلا من الصفوة عاش بايمانه ومات بايمانه ، أما أنا عباس حلمي فأنى ما كنت أبدا خصمه ، وما كنت أبدا وحيه ، ولم يكن صنيعتي بل كان رائدا جنديا يحارب تحت راية مثله الأعلى^(١١) .

ولقد قامت علاقة مصطفى كامل بالخديو تبعا لمواقف الخديو تجاه الاحتلال فقد اتخذ مصطفى كامل موقف المعارضة منه حين تنكر للحركة الوطنية ، لذلك يمكن القول بأن الخديوية عند مصطفى كامل كانت أداة من أدوات الكفاح وليست غاية وأن مصطفى كامل اتخذ من الخديو وسيلة لتوحيد سياسة الأمة المصرية على مقاومة الاحتلال^(١٢) .

ومع أن مصطفى كامل حاول ألا تصل علاقته مع الخديو الى درجة النزاع الواضح حتى لا يعطى للانجليز الفرصة لتعميق ذلك الخلاف فإنه لم يكف عن توجيه النقد اليه كلما تقرب الى الاحتلال فلم يسكت على وقوف الخديو تحت العلم البريطاني أثناء استعراض جيش الاحتلال

(١٠) عبد اللطيف حمزة : ادب المقالة الصحفية ج ٥ ص ٦٤ — ٦٥ .

(١١) جريدة المصري العدد ٤٨٣٨ في ١٧ مايو ١٩٥١ تحت عنوان مذكرات الخديو عباس حلمي الثاني .

(١٢) محمد رشيد رضا : المرجع السابق ص ٥٩٣ .

فى نوفمبر ١٩٠٤ بمناسبة عيد ميلاد ملك بريطانيا بل انتقد ذلك بشدة
جوحاً أن ما فعله الخديو يمثل اهانة للكرامة القومية^(١٣) كما انتقد
مصطفى كامل انصراف الخديو الى مصالحه الخاصة^(١٤) ووقوفه بجانب
الشيخ على يوسف فى قضية الزوجية ، يضاف الى ذلك انتقاد مصطفى
كامل لحديث الخديو الى المستر دايسى حينما نفى عن نفسه تهمة العمل
ضد الاحتلال ومدح أعمال كرومر^(١٥) ومن ذلك يتضح أن مصطفى كامل
كان يتخذ من الخديو أداة لتحقيق أغراض الحزب الوطنى وقد أكد ذلك
المستر بلنت بقوله أن مصطفى كامل ندد بالخديو فى حديث معه يوم
١٩ ديسمبر ١٩٠٦ فقال أن جميع أفراد الأسرة الخديوية لا يساوون
شيئاً ويجب ابعادهم عن العرش^(١٦) ، كما ذكر رشيد رضا أن الحزب
الوطنى كان يتخذ من الخديو وسيلة لتوحيد سياسة الأمة على مقاومة
الاحتلال فان خلفت البلاد بجلاء الانجليز فان الحزب الوطنى يؤسس
لها حكومة لا يكون للخديو ولا لأمثاله أدنى حظ منها^(١٧) .

وهكذا كان شعار مصطفى كامل الوطنية ، وغرضه الوطنية ، وكلماته
الوطنية ، وكتابه الوطنية ، وحياته الوطنية حتى لبسها ولبسته فصار
بينهما تلازم مستمر فى كافة المواقف .

أما الشيخ على يوسف فقد كان يختلف عن مصطفى كامل فى تعامله
مع الخديو إذ كان مرتبطاً بسياسة الخديو متعلقاً بأذياله ، فهو معه
يسخط على الاحتلال أم تهادن معه فعندما هادن الخديو الانجليز بعد
فاشودة توقف الشيخ على يوسف عن مقاومة الانجليز كما أنه ضاق
ذرعاً بمقالات مصطفى كامل التى كانت تنشرها له المؤيد ، مما دفع

(١٣) الرانعى : المرجع السابق ص ١٨٣ .

(١٤) اللواء فى ١٠ ابريل ١٩٠٤ .

(١٥) اللواء فى ٢٦ مايو ١٩٠٧ .

(16) Blunt : My Diaries, Vol 11, p. 169 .

(١٧) محمد رشيد رضا : المرجع السابق ج ١ ص ٥٩٣ — ٥٩٤ .

الأخير إلى انشاء اللواء في يناير ١٩٠٠ حتى يعبر عن آرائه ويوصلها إلى الجماهير بدون قيود^(١٨) وليتخلص أيضا من معاكسات الشيخ على له^(١٩) . وقد أحاط الخديو عباس الثاني المؤيد وصاحبه برعايته وشملهما بحمايته وأصبح الشيخ على يوسف يسير في ركاب الخديو حيث سار^(٢٠) ويقف معه سواء أكان ظالما أو مظلوما لمبعد الاتفاق الودى ١٩٠٤ تغيرت سياسة الشيخ على يوسف تجاه الانجليز ، وعدل عن المطالبة بالجلاء صراحة وسافر إلى لندن وألقى خطبة طالب فيها المصريين بأن تكون لندن كمبتهم من الآن ، وبعد انفصال الحزب الوطنى عن الخديو وقف الشيخ على يوسف ضد مصطفى كامل علانية مما جعل الطلبة يتظاهرون ضده ويرشقون داره بالحجارة^(٢١) .

وأخذت العلاقات تتوطد بين الخديو والشيخ على يوسف لدرجة أن الخديو كان يستشير في تشكيل الوزارات^(٢٢) واختيار الوزراء كما جعله من جلسائه وأحد نصحاؤه وحظى بعطلة الذى لا ينقطع^(٢٣) يضاف إلى ذلك أن الخديو جعل من الشيخ على واسطته في قضاء حاجاته الخاصة ، مثل بيع الرتب وخلافه وقد أوضح محمد فريد ذلك في مذكراته فقال « كان الشيخ أكبر سمسار في بيع الرتب والنياشين وفي مسائل الأوقاف وقد أثارت مواقف الشيخ على الموالية للخديو عداء مصطفى كامل له فاندفع في حملات عنيفة عليه على صفحات اللواء ، كما انتهز فرصة زواجه من ابنة الشيخ السادات رغم ارادة والدها وشن عليه حملة قاسية فكتب مقالا في اللواء تحت عنوان « قضائية

(١٨) على نهى كامل : مصطفى كامل في ٢٤ ربيعا ج ١ ص ٤٢٢-٤٢٣ .

(١٩) مذكرات محمد فريد . ملف ٢ ص ٥٨ .

(٢٠) تشارلز آدمز : الاسلام والتجديد في مصر ص ٢١٧ .

(٢١) مذكرات محمد فريد ملف رقم ٢ ص ٥٨ .

(٢٢) مذكرات سعد زغلول كراس رقم ٩ ص ٣٨٢ .

(٢٣) أحمد شفيق : مذكرات في نصف قرن الجزء الثانى — القسم الثانى ص ٧ ، ٢٧ ، ١٠٤ .

الزوجية» أوضح فيه أثر هذه القضية في غضب الرأي العام وأثاره الخواطر كما كتب مقالاً آخر بعنوان «من فضيحة إلى أخرى» ندد فيه بالشيخ على يوسف واتهمه بالخروج عن مبادئه ، وقد اشتمل هذا المقال على ٢٦ سؤالاً وجهها مصطفى كامل إلى الشيخ ومنها : هل الرجل الذى يقيم عشرة أعوام على مبدأ سياسى مرعاه الجلاء والاستقلال ثم يتحول عنه إلى اطراء الاحتلال ومصلحته يعد منافقاً أم لا (٢٤) .

كما حاول مصطفى كامل أن يقنع الخديو بمضار خطته فى تأييد الشيخ على يوسف أثناء مقابلة ديفون ، ولكن الخديو لم يقتنع برأيه مما دفع مصطفى كامل إلى قطع صلته به .

وعلى كل حال فقد روج مصطفى كامل للقضية المصرية ترويجاً واسعاً حتى انضم إليه الكثيرون ، كما روج الشيخ على يوسف أيضاً للقضية المصرية ولكن طريقته فى الترويج كانت تختلف عن طريقة مصطفى كامل وكان تقبل الناس له أقل من تقبلهم لمصطفى كامل فالشيخ على يوسف كان أقرب إلى الهدوء والرزانة بينما مصطفى كامل كان أقرب إلى الثورة ، ولعل القضية المصرية كانت فى حاجة إلى المجهودين معا وقد عبر الخديو عباس عن ذلك بقوله « لا يسعنى الا أن أذكر كل أولئك الذين وهبوا أنفسهم للنهضة الوطنية وأن أذكر من الصحفيين السدد على يوسف منشىء جريدة المؤيد المعروفة فى زمانها بتمس الشرق ولنذكر أيضاً جرائد الزعيم الوطنى الكبير مصطفى كامل باشا «اللواء» وزميله الانجليزى والفرنسى» (٢٥) .

كما أوضح الخديو أنه حاول التقريب بين وجهتى نظر كل من الشيخ على ومصطفى كامل ولكنه لم يستطع مطلقاً أن يحقق هذا الأمل إذ كان يفرق بين هذين الرجلين نوع من الكبرياء المبالغ فيه ، ومع ذلك فقد

(٢٤) اللواء : العدد ١٦٠٦ من ٣١ ديسمبر ١٩٠٤ .
(٢٥) جريدة المصرى . من ٢٧ مايو ١٩٠١ . مذكرات الخديو عباس الثانى .

كان بوسعهما أن يتقاهما دون أن يتحبا ، وكان لهما من المزايا والفضائل ما يكفى لأن يظفر كل منهما من صاحبه بالتقدير (٢٦) .

وخلاصة القول أن الشيخ على يوسف سار مع الخديو سواء سخط على الاحتلال أم تهادن معه بينما وقف مصطفى كامل مع الخديو عندما ساند الحركة الوطنية واختلف معه عندما هادن الاحتلال لأن الخديوية كانت أداة من أدوات الكفاح لا غاية .

٣ — تحليل سياسة مصطفى كامل ودوره فى قيادة الحركة الوطنية :

لقد أعاد مصطفى كامل للمصريين ثقتهم بأنفسهم بعد هزيمة العربيين فى النيل الكبير ، وذكرهم بماضيهم وجلال تاريخهم فى أسلوب سهل مؤثر على سامعيه ، فجرت خطبه على السنة الناس وكأنها أناشيد وأغان ، وكان مصطفى يعتقد أن الدين والوطنية متكاملان ولا مجال للصدام بينهما (٢٧) .

ولسنا من القائلين بعصمة الزعيم من الخطأ لأنه بشر ، والبشر معرض للخطأ كما أنه معرض للصواب ، كما أننا نضع فى اعتبارنا أن ما كان يمكن اعتباره عملاً عظيماً بالأمس قد لا يعد اليوم كذلك .

وفيما يلى نعرض للالتزامات التى وجهها البعض الى مصطفى كامل ونحاول تحليلها والرد عليها :

١ — قال البعض أن مصطفى كامل حاول ربط مصر بعجلة الدولة العثمانية رغم ضعفها ورغم الأضرار التى تلحق بمصر من جراء ذلك . ولتحليل ذلك يمكن أن يطرأ على ذهن عدة تساؤلات وهى :

(٢٦) جريدة المصرى : العدد السابق .

(٢٧) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى : تاريخ مصر السياسى من الاحتلال الى المعاهدة القاهرة — دار المعارف ١٩٦٧ ص ٣٠ .

- (١) ما هو هدف مصطفى كامل من ربط مصر بالدولة العثمانية ؟
 (ب) ما هي الفوائد والأضرار التي عادت على مصر من هذه السياسة ؟
 (ج) هل كان مصطفى كامل على استعداد لتعديل هذه السياسة إذا أضرت بمصلحة مصر ؟

وعن التساؤل الأول فإن مصطفى كامل تلميذ عبد الله النديم — الذي نادى بأن تكون مصر للمصريين ، وفصل الوطنية المصرية عما عداها — قد دعا الى دعم تبعية مصر لتركيا وضرورة التمسك بالرابطة العثمانية^(٢٨) حتى يطمئن الى أن تركيا لن تنضم الى انجلترا في سياستها الاستعمارية ضد أماني المصريين^(٢٩) وحتى يثبت بطلان الاحتلال الانجليزي وعدم شرعيته كما أنه رأى في التعاون مع الدولة العثمانية ورقة سياسية ذات فعالية ضد محاولات انجلترا اعلان الحماية على مصر فليس من الحكمة أن ينادى مصطفى كامل بجلاء الاحتلال البريطاني وبالقضاء على السيادة العثمانية معا^(٣٠) يضاف الى ذلك أن مصطفى كامل كان يأمل في وجود كتلة اسلامي لمواجهة الخطر الأوربي ، ولا مانع عنده من أن يكون هذا التكتل تحت زعامة تركيا بمعنى أن الولاء لتركيا كان موقفا سياسيا لمسيرة الظروف الدولية التي تحيط بمركز مصر آنذاك فدعوته الى التمسك بالروابط مع تركيا لم تكن على حساب القضية إنما كانت لخدمتها .

وقد تساءل مصطفى كامل ردا على مزاعم معارضيه ، ما الذي كان يحدث لمصر لو تنازلت تركيا عن حقوقها في وادي النيل بمعاهدة مثل

(٢٨) مصطفى كامل : « المسئلة الشرقية » ص ٢٥٩ .
 (٢٩) محمد علوية : ذكريات سياسية واجتماعية ص ٢٦ .
 (٣٠) الرافعي : المرجع السابق ص ٣٦٠ .

ما حدث في الاتفاق الودى بين انجلترا وفرنسا ١٩٠٤ ألم يكن ذلك ربحا حقيقيا لانجلترا حيث يتسنى لها اعلان حمايتها على مصر .

ان فكرة عدم التعرض للسيادة العثمانية في ذلك الوقت كان لها ما يبررها لأن التدخل من هذه السيادة كان أمرا هينا بعد التدخل من الاحتلال (٣١) .

وقد عبر مصطفى كامل عن ذلك بقوله « وليعلم أعداء مصر أننا نطلب لها الاستقلال بأعلى أصواتنا وعلى مسمع من أمم الأرض ، وأننا اذا أخلصنا الود لأمة أو لدولة فإننا نعمل كغيرنا نتبع ناموس الطبيعة القاضى بأن من اتفقت مصالحهم يجتمعون ويتناصرون (٣٢) » .

ومما سبق يتضح أن رؤية مصطفى كامل للسيادة العثمانية كانت قائمة من أجل مصلحة مصر ، وان حركة الحزب الوطنى كانت تابعة من مصر وغاية أمانها الاستقلال (٣٣) .

وعن التساؤل الثانى وهو ما هى الفوائد والأضرار التى عادت على مصر من محاولات مصطفى كامل ربحها بتركيا ؟ فيتضح أن هذه المحاولات أرجأت محاولات الانجليز ضم مصر اليهم ، كما فوّت عليهم محاولات تقسيم مصر وأبرزت دولية المسألة المصرية .

أما عن أضرار هذه العلاقة فإنها أبعدت الفلاحين المصريين عن حركة مصطفى كامل الوطنية بعض الوقت لأن تقربه من الدولة العثمانية جعلهم يخشون عودة الحكم التركى بجبروته وقسوته ويذكرهم بالكرباج وقسوة جمع الضرائب .

(٣١) الرامسى : المرجع السابق ص ٣٦٢ .

(٣٢) نفسه ص ٣٦٨ .

(٣٣) اللواء نى ٢ فبراير ١٩٠٧ تحت عنوان « أمانى مصر وآمالها » .

أما عن التساؤل الثالث وهو هل كان مصطفى كامل على استعداد لتعديل هذه السياسة إذا أضرت بمصلحة مصر فإننا نعتقد أنه لو امتد بمصطفى كامل الأجل لعدل خطته تجاه تركيا كما عدل من خطته تجاه فرنسا والخبديو من قبل لأنه كان لا يتوخى غير مصلحة مصر ولا يبحث إلا عن سلامتها .

(ب) علاقة مصطفى كامل بفرنسا

كان التجاء مصطفى كامل الى الدول الأوروبية وخصوصا فرنسا — ليطالب نجدها ضد الاحتلال الإنجليزي لمصر — أمر تقتضيه الظروف ومع ذلك فقد اتهم البعض مصطفى كامل بأنه كان عميلا لفرنسا ولكن الرد على ذلك هو أن العميل دائما تابع والتابع يصعب عليه أن ينتقد متبوعه ، أما مصطفى كامل فإنه لم ينتقد سياسة ولم يتهم على منهج وأسلوب عمل كما فعل مع فرنسا فقد انتقدها علنا^(٢٤) .

حقيقة أن مصطفى كامل كان معجبا بفرنسا فهي البلد الذي تعلم فيه القانون ، وفكر فيه بكثير من الأصقاء ، وتعرف فيه على كثير من رجال الأدب والفكر والصحافة ، واتخذ فيه لنفسه أما روحية هي جوليت آدم ، ورأى فيه كيف تكون الحرية والأخاء والمساواة^(٢٥) ومع ذلك فقد انتقدها وعاب سياستها علنا وأبدى سخطه عليها وبوجه خاص بعد فاشودة والاتفاق الودي ، وقد أوضح ذلك في خطاب له الى جوليت آدم فقال « انى أود أن لا تخفى عنك خافية من أفكارى وحقيقة احساسى نحو فرنسا فأنتلى أهيج ضد السياسة المشكومة التى تقتلى أثرها^(٢٦) » .

(٢٤) فتحى رشوان : مصطفى كامل . القاهرة — دار المعارف ص ٢٤٧ .

(٢٥) د. عبد اللطيف حيزة : ادب المقالة الصحفية فى مصر . ج ٥ مصطفى كامل صاحب اللواء . القاهرة — دار الفكر العربى . الطبعة الأولى ص ٦١ .

(٢٦) على فهمى كامل : المرجع السابق ص ٢٤٣ .

أما وقد استعان مصطفى كامل بفرنسا فكان أمر تقتضيه الظروف لفرنسا كانت دائما المنافس الأول لـإنجلترا ، وهذا أتاح لمصطفى كامل منابر لم يكن يجدها في مكان آخر ، فقد وضعت فرنسا صحفها ومجلاتنا وجمعياتها تحت إمرة مصطفى كامل^(٣٧) .

ومع ذلك فإن مصطفى كامل لم يعتمد على فرنسا وحدها بل دافع عن القضية المصرية وأوصل صوت مصر الى كثير من البلاد الأوروبية وحتى إنجلترا نفسها سافر اليها مصطفى كامل لتوضيح قضية بلاده .

لقد حاول مصطفى كامل أن يضرب بريطانيا بفرنسا ويخرج بمعركة بلاده منتصرا ، ولكن تراجع فرنسا المستمر أمام إنجلترا أضاع أمله ، لذلك لم يجد مصطفى كامل بدا من الاعتماد على الرأي العام المصرى في مواجهة الاحتلال .

(ج) علاقة مصطفى كامل بالخدوي

سار مصطفى كامل على هدى تعليمات أستاذه القديم بالآ يعاى الخديو حتى لا تنقسم الأمة كما حدث بين العربيين والخدوي توفيق لذلك اتخذ مصطفى كامل من الخديوية سندا في كفاحه ، ولا شك أن الحركة الوطنية قد استفادت كثيرا بانضمام الخديو اليها ، ومع ذلك فإن هذه الحركة لم تكن ربيبة القصر كما أن الوجود الاحتلالى لم يتسبب في ظهور الحركة الوطنية وإن كان قد ساعد على نموها^(١) فالمتنبه لجذور الحركة الوطنية أيام مصطفى كامل يجد أنها لم تتبع من فراغ ، فقد سبقتها ثورة عرابى التى انتهت بالافخاق ، فجاء مصطفى كامل لكي يبدد ظلام الهزيمة وينير طريق الكفاح الوطنى .

(٣٧) فتحى رضوان : المرجع السابق ص ٢٥٢ .

١ — د. يونان لبيب : المرجع السابق ص ١٩٠ .

ويجب أن نذكر أن الحركة الوطنية في أول أمرها كانت أضعف من أن تقف بمفردها أمام الانجليز ، لذلك كان ارتباط مصطفى كامل بالخدويو أمر يقتضيه الواقع وتحتمة الظروف ، ومع ذلك قد سائر مصطفى كامل الخديو طالما وقف الأخير بجانب الحركة الوطنية ثم اختلف معه عندما هادن الخديو الانجليز وسائيرهم . ومعنى هذا أن مصطفى كامل لم يكن عميلا للخدويو ، وقد أوضح ذلك الخديو عباس نفسه فقال ليس هناك ما هو أشد بعدا عن الحقيقة من هذا الذي قيل ، أن مصطفى كامل لا ينتمى الا الى نفسه (٣٨) .

والواقع أن مصطفى كامل اتبع سياسة متراعية الأطراف تعتمد على أساليب متعددة من أجل جلاء الانجليز عن مصر ولم يترك وسيلة للدعاية للقضية المصرية الا ولجأ اليها . فقد كانت رسالته رسالة الاستقلال ، والجلاء في نظره هو الرمز الصحيح للاستقلال لذلك وقف ضد الاحتلال وطرب عندما « رأى الروح الوطنية في مصر قد جرت مع الدم في العروق ، وأن حب الاستقلال صار يسكن كل فؤاد لأنه لا حياة للامة المصرية بغير ذلك ولا تقدم لها بغير الوطنية العالية (٣٩) » .

لقد كان مصطفى كامل في رأى البعض خياليا متعلقا فقد وصف الشيخ محمد عبده مقالاته بأنها « مجموع نوبات عصبية بعضها شديد وبعضها خفيف (٤٠) » ، واعتبر البعض طلبه للاستقلال سابقا لأوانه (٤١) .

(٣٨) المصري : في ١٨ مايو ١٩٥١ — مذكرات الخديو عباس الثاني .
(٣٩) ضمن خطاب أرسله مصطفى كامل من باريس بتاريخ أول سبتمبر ١٩٠٧ الى أحمد حلمي المحرر باللواء . والخطاب موجود بمتحف مصطفى كامل بميدان صلاح الدين بالقاهرة .

(٤٠) محمد رشيد رضا : المرجع السابق ص ٥٩٣ .

(٤١) الهلال : الجزء الثالث من السنة ١٦ في أول مارس ١٩٠٨ ص ٣٢٣ .

والخلاصة أنه إذا كان لمصطفى كامل أخطاء ، فمن الممكن أن يلتصق له العذر في أنه قد ناضل من أجل مصر في شبابه ، كما أنه لم يمتد به العمر حتى تصقله تجارب الشيخوخة ، ورغم ذلك فيصعب على أحد أن ينكر أن مصطفى كامل تخدم مصر بعمره القصير أكثر مما تخدمها استغاب التجارب الكثيرة في أعمارهم الطويلة .

وفاة مصطفى كامل

ان المهمة الوطنية الكبيرة التي حملها مصطفى كامل على كاهله وفل يكافح من أجلها بكل جهد قد أنهكت قواه ، ومع ذلك لم يستطع أحد حتى من المقربين اليه أن يجبره على الترام الراحة^(٤٢) .

وقد شعر مصطفى كامل بالمرض لأول مرة قبل وفاته بنحو أحد عشر عاما من فرط الاجهاد في العمل لخدمة وطنه حينما عاد من أوروبا في ١٠ أكتوبر ١٨٩٧ فاستقبله أصدقاؤه وأنصاره بالحفاوة ولكن لم يمض يومان على عودته حتى اعتراه مرض أنك قواه عدة أسابيع لما أشار عليه الأطباء أن يقضى الشتاء في حلوان ليعمل بمشورتهم^(٤٣) ثم عاد الى جهاده المليء بالمقاعب ، وكان حبه لمصر يفوق اهتمامه بصحته ، وقد عاوده المرض من حين لآخر حتى اعتلت صحته وقد كتب الى جوليت آدم موضحا ذلك بقوله « ان العمل قد أفسدني الى حد أشعر معه بسرعة الحاجة الى ترك الوسط الذي أعيش فيه ، وكأن الطبيعة هالفت سنتها اذ جعلت قوة روحي أكبر من قوة جسمي^(٤٤) » .

ولقد أثر مصطفى كامل الاهتمام بالدفاع عن قضية مصر على الاهتمام بصحته والسهر عليها مما جعل مهام الواجب الوطني والمسؤوليات التي أخذها على عاتقه تنوء بهيكله الضعيف ، وتفسطرو

(٤٢) احمد رشاد : المرجع السابق ص ٢٨٥ .

(٤٣) طاهر الطناني الساعات الأخيرة . القاهرة — دار الهلال .

(٤٤) الراعى : المرجع السابق ص ٢٧٠ .

جلاء أسفاره في الخارج إلى أعمال العلاج الذي يتطلبه تكوينه النحيف غفى أثناء جادته دنشواى كان مصطفى كامل يستجم من ومن في قوته ، ولكنه ما أن سمع بالحادث حتى ترك الراحة واستأنف جهاده^(٤٥) فذهب من غرائس المرض يدافع عن المظلومين ويحارب بقلمه ولسانه الظالمين رغم الحاح طبيبه عليه بالراحة فكتب في « الفيجارو » مقالا تحت عنوان « إلى الأمة الانجليزية والعالم المتمدنين » شرح فيه الحادث أمام الضمير الانساني^(٤٦) ، فكان لذلك أكبر الأثر في توضيح ما ثن منه مصر تحت نير الاجتلال ثم سافر مصطفى كامل إلى لندن فوضح للرأى العام الانجليزى حقيقة أعمال كرومر في مصر وعندما عاد إلى مصر انكب على العمل لتحقيق المهام الوطنية التي نالت الكثير من صحته^(٤٧) ويذكر محمد فريد « أنه عندما عاد مصطفى كامل من أوروبا وذهب لمقابلته بالاسكندرية على الباخرة وكان الدكتور رمضان بانتظاره باللوكاندة ، فلما رآه مصفرا أخضر اللون قال لى همسا ان حالته الصحية غير مرضية ولا بد أن يكون مصابا بالسل^(٤٨) وتذكر جوليت آدم أنه بعد عودة مصطفى كامل من انجلترا أصيب بمرض غريب صرح على اثره طبيبه الخاص بأن حياته في خطر ، وأنه من المحتمل أن يكون قد دس له السم في انجلترا^(٤٩) وقد ألح المرض على مصطفى كامل قبيل وفاته بثلاثة أشهر^(٥٠) وبوجه خاص بعد وفاة والدته التى حزن عليها كثيرا ، ويتضح ذلك في رسالة له إلى مدام جوليت آدم في ١٥ مايو ١٩٠٧ قال فيها « ان والدتي العزيزة ، المالكة فؤادى قد فارقت الدنيا يوم الأحد الفائت . ان حزنى شديد ، وحياتى كادت تنقضى^(٥١) » ومع ذلك فقد مضى مصطفى كامل

• (٤٥) أحمد رشاد : المرجع السابق ص ٢٨٥ .

• (٤٦) طاهر الطنحاني : المرجع السابق .

• (٤٧) أحمد رشاد : المرجع السابق ص ٢٨٦ .

• (٤٨) مذكرات محمد فريد : الجزء الاول القسم الاول ص ٣ .

• (٤٩) جوليت آدم : المرجع السابق ص ٢٦٠ .

• (٥٠) الرافعي : المرجع السابق ص ٢٧١ .

• (٥١) على فهمي كامل : المرجع السابق ص ٢٨٧ .

فى عطلة فظل يغالب المرض ويجاهد ولما خان موعد اجتماع الجمعية التأسيسية للحزب الوطنى فى ٢٧ ديسمبر ١٩٠٧ ترك سرير مرضه ونزل الى ساحة دار اللواء حيث اجتمعت الجمعية العمومية وهناكلقى خطبته ، وكانت آخر خطبة له فقد اشدد به المرض عقب الاجتماع وعاد الى غرفته مريضاً ، وفى صباح اليوم التالى بلغه نبأ وفاة صديقه لطيف باشا سليم — أحد مؤسسى الحزب الوطنى وأحد أعلام الحركة الوطنية^(٥٢) وأحد رجال الادارة والقضاء المعدودين فى مصر آنذاك^(٥٣) فجزع مصطفى لوفاته جزعا شديدا وتدهورت صحته بسبب ذلك^(٥٤) .

وكان مصطفى كامل وهو على فراش المرض لا يدع العمل والتفكير فى خدمة مصر فقد أرسل وهو طريح الفراش وقبل وفاته بخمسة أيام احتجاجا ضد تصريحات السير ادوارد جراى التى أدلى بها فى مجلس العموم البريطانى واتهم فيها المصريين بعدم الكفاية للحكم الذاتى ، فرد عليه بأن مصر لا تنقل عن الأمم الأوروبية فى استعدادها للحكم الذاتى وانها ستظل تتجاهد فى سبيل حريتها واستقلالها حتى تحصل عليهما^(٥٥) .

أخذ المرض يشدد على مصطفى كامل الى أن أسلم الروح فى الساعة الرابعة من عصر يوم الاثنين ١٠ فبراير ١٩٠٨ وقد نشرت اللواء هذا النبأ على صفحاتها فقالت « توفى الى رحمة الله مديرنا العزيز مصطفى كامل باشا رئيس الحزب الوطنى فى تمام الساعة الرابعة من بعد ظهر أمس . لقد أصيب مديرنا باغما فى الصباح ألقى بالنار وحوالى الظهر

(٥٢) الرافعى : المرجع السابق ص ٢٧١ — ٢٧٢ .

(٥٣) الأخبار : العدد ٢٥٦ فى ٢٩ ديسمبر ١٩٠٧ تحت عنوان « لطيف باشا سليم » .

(٥٤) كتب مصطفى كامل الى جوليت آدم يقول « أما صحتى فهى بين اليأس والرجاء .. والسبب فى انتكاسى بعد خطبتي راجع الى مفاجأة المنون صديقا لى جميعا كان من أشد واكبر نصرائى المرحوم لطيف باشا سليم » . انظر رسائل مصرية فرنسية ص ٣٠١ .

(٥٥) الرافعى : المرجع السابق ص ٢٧٢ .

لاح لنا أنه تحسن قليلاً ، فاستأنفنا أعمالنا ، وقد كنا قطعناها فانهيئناها ، ولكن سرعان ما انتكست وخارت قواء تديجيا واغظ أنفاسه الأخيرة عندما كانت الساعة تدق الرابعة (٥٦) » .

وقد انتشر هذا النبأ في أنحاء مصر وبلغ الحزن منتهاه ولم يكن الشهور مقصورا على طبقة دون أخرى بل تناول كافة طبقات الأمة (٥٧) حتى أن خصوم مصطفى كامل السياسيين قد جزعوا لوفاته (٥٨) ، كما أن الحزن لم يكن مقصورا على مصر وحدها بل تخطاها وانتشر في سائر العالم الاسلامي (٥٩) .

وقد شيعت جنازة مصطفى كامل بعد ظهر يوم ١١ فبراير ، وكان يوما مشهودا لبست فيه الأمة المصرية ملابس الحداد واجتمعت عشرات الآلاف للسير في الجنازة التي وصفها قاسم أمين بأنه رأى فيها قلب مصر يخفق للمرة الثانية بعد دنشواي .

وقد اشتركت معظم المدارس في تشييع جنازة مصطفى كامل ، وكانت كل مدرسة تسير حاملة علمها ، وقد حمل طلبة الحقوق النعش الملفوف بعلم مصر على أكتافهم ورغم محاولات الحكومة منع الطلبة من الاشتراك في الجنازة فإن الطلبة تركوا دروسهم وخالفوا أوامر

(٥٦) اللواء في ١١ فبراير ١٩٠٨ .

(٥٧) الرافعي : المرجع السابق ص ٢٧٣ .

(٥٨) رغم ما كان بين مصطفى كامل ولطفى السيد من خصومة سياسية عقد وقف الأخير كائنه مجروح في أمر الناس واتبرهم اليه ، وكان لطفى السيد ممن دعوا الى اقامة تمثال لمصطفى كامل .

محمد حسين هيكل : مذكرات في السياسة المصرية ج ١ ص ٣٣ .

(٥٩) الهلال : الجزء السادس من السنة السادسة عشرة في اول مارس ١٩٠٨ ص ٣٢٢ تحت عنوان « مصطفى كامل والنهضة السياسية » .

نظار المدارس^(٦١) وذلك نظراً لما كان يتمتع به مصطفى كامل من نفوذ كبير بين الطلبة^(٦٢) .

ولم يستطع المعتمد البريطاني جورست أن يخفى الحقيقة فقد ذكر في تقريره أن جمهوراً كبيراً قد شيع جنازة مصطفى كامل كان أكثرهم من الأبنودية وتلاميذ كل مدارس القاهرة الثانوية والعالية تقريباً^(٦٣) كما اشترك في تشييع الجنازة كثير من كبار رجالات مصر وأعيانها وقد نشرت الصحف المصرية بكافة اتجاهاتها نبأ الوفاة وأغرقت الأعمدة الطوال من صفحاتها لهذا النبأ . ويذكر على فهمي كامل أنه تسلم ١٣٣٣٤ برقية ، ٨٤٣٠ خطاب عزاء وأن الطلاب ذكورا وإناثا حملوا شارة الحداد عليه أربعين يوماً بالرغم من معارضة مستشار المعارف دنلوب^(٦٤) .

ولقد ظن الانجليز أن المعارضة قد ماتت بوفاة مصطفى كامل وفات عليهم أنه قد بذر حب الوطنية وسلم الراية مرفوعة لن أتى بعده كما أرسى دعائم حزب سياسي استطاع إدارة دفة الكفاح الوطني ضدّهم تحت زعامة محمد فريد .

(٦٠) مذكرات سعد زغلول كرّاس رقم ٧ من ٢٤٢ — ٢٤٤ .

(٦١) London : op. cit. p. 123 .

(٦٢) تقرير جورست عن المالية والإدارة والحالة العمومية عام ١٩٠٧ .
من جورست إلى جرجي . القاهرة — ترجمة المفلّح من ٧٦ .

(٦٣) على فهمي كامل : المراجع السابق ص ٢١٥ .